٣ – هذا العنف النقدى
لمـاذا ؟ !! وإلى أيـن ؟ !!

ثلاثة مواقف بعينها جعلتنى أسأل هذا السؤال المزدوج ، ثم أشرع قلمى لأكتب هذا الكلام الذى أرجو أن يكون مما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . وهذه المواقف هى :

(١)

فى سنة ١٩٧٨ صدر كتاب عن (تطور النقد العربى الحديث فى مصر) يحمل نفس الاسم .

والموضوع – كما نرى – كبير وخطير ؛ فالعصر الحديث يبدأ بمجىء الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ أو بتولى محمد على الحكم مصر سنة ١٨٠٥ وهو فرق زمنى بسيط لا يؤثر فى الظواهر الأدبية العامة وإن أمكن أن يؤثر فى الظواهر الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية ؛ ذلك أن الظواهر الأدبية بطيئة ومستأنية ، وهى تحتاج – كى تتبلور وتتطور وتستحيل من ضعف إلى قوة أو من قوة إلى ضعف – إلى حياة جيلين على الأقل ، ولما كان علماء الاجتماع يقررون أن القرن يتسع لثلاثة أجيال : أب وابن وحفيد أو ابن وأب وجد ، فهذا يعنى أن الظاهرة الأدبية تحتاج – من أجل الإرهاص بها ثم ميلادها ونشأتها وفاعليتها وهيمنتها ، تحتاج من أجل تحقيق ذلك كله إلى ثلثى

قرن وربما إلى قرن كامل، وانظروا بعد هذا كم أخذ تطور النقد العربى الحديث فى مصر من زمن منذ كان إلى الآن وعلى وجه التحديد إلى سنة ١٩٧٨ وهى السنة التى صدر فيها الكتاب آنف الذكر ، وهو كتاب ضخم يقع فى ٥٠٠ خمسمائة صفحة من القطع الكبير ، وكان رسالة دكتوراه ثم أخذ شكل كتاب عند الطبع .

ولما كان صاحبه رئيس تحرير مجلة محترمة ومرموقة ، وكان هو أيضًا محترمًا ومرموقًا وذا شأن ، فقد هللت الصحف والمجلات للكتاب بالقدر الذى لفت نظرى إليه ، وجعله يحتل منى بؤرة الشعور أو قريبًا منها ، ولم ألبث أن تلقيت الكتاب هدية سخية من مؤلفه الفاضل فعكفت عليه قرابة شهر قراءة ودراسة وتدوينًا للملاحظات التى تعن لى ، وقلت لنفسى :

إن هذه الملاحظات لو نشرت لأتمت فائدة الكتاب .

ونسقت ما كتبت ثم قصدت مدير تحرير المجلة المذكورة ليأخذ منى – كالعادة – ما كتبت ، ولكنه على غير العادة – لم يمد إليه يدًا ، ولم يدعنى لحيرتى بل قال بلطف :

نحن لا ننشر فى مجلتنا ثناء علينا، وحاولت أن أفهمه أن النقد موضوعى ، وأنه – كما قال الشاعر القديم – (لا علىَّ ولا ليا) دون جدوى .

فتوجهت بما كتبت إلى مجلة ثانية أعطانى – مشكورا – عنوانها ، وأشهد : لم أكن أعرف مديرها ولا رئيس تحريرها ، فلم تلبث أن نشرت لى نقدى فى صدر عدد من أعدادها وعلى مساحة كبيرة من صفحاتها .

ومع أن المجلة الثانية توأم للمجلة الأولى أى أنها أختها وأكاديمية مثلها وتباع بنفس ثمنها ، والمشرفون عليها زملاء وأصدقاء للمشرفين على المجلة الأولى ، فإن رئيس التحرير المنقود قد هاج وماج وثار ثورة عارمة علىَّ وعلى المجلة التى نشرت لى وعلى المسؤولين عن تحريرها ، وقد ختم رده – ولا أقول نقده – على ما كتبته بأن شكرنى على جهدى العضلى مع كتابه ، وهى عبارة ظريفة خفيفة الظل ، وقد جعلنى ذلك لا أنساها وشىء آخر ساعد على تذكرها وعدم نسيانها وهى أنها كانت أكثر عباراته تحشمًا .

* * *

كان هذا هو الموقف الأول من مواقف العنف النقدى ، وهو موقف سارت بذكره الركبان فى القاهرة المعزية، ثم صار موضوع سهرة فى البرنامج الثانى وهو البرنامج المخصص للنواحى الثقافية بإذاعة جمهورية مصر العربية.

(٢)

حدث الموقف السابق منذ سنتين .

ومنذ شهرين ، نشرت مجلة جامعية طلابية مقالاً نقديًا موجزًا لكنه حرِّيف وحاد .

كاتب المقال شاب ألمعى ذكى ، يدل مقاله – إن كان له – على أنه على درجة كبيرة من الثقافة والاطلاع والسيولة القلمية والملكة النقدية التى سيكون لها إن شاء الله تعالى شأن أى شأن .

هذا الكاتب الطالب أو هذا الطالب الكاتب وصف (إنتاجنا فى معظمه)– على حد قوله – بأنه (الأدب المحموم) ومعذرة ؛ فهذا هو عنوان المقال .

أما تفصيلاً : فقد رماه بالسطحية والابتذال والغموض والأمية ، وهو – لهذا – يشفق على إنتاج شبابنا الذى ينتج وينتج بلا كلفة ولا عناء ولا عمق ...

وقد غصصت بما قرأت ، لكنى قلت : وهذا موقف ثان من مواقف العنف النقدى وقع الأول فى القاهرة ووقع الثانى فى الرياض .

(٣)

نأتى إلى ثالث المواقف .

كان ذلك منذ أسبوع ، وعلى وجه التحديد يوم الثلاثاء ٢٧ صفر ١٤٠٠هـ ، ١٥ يناير ١٩٨٠ ، ويوم الثلاثاء من كل أسبوع هو اليوم الذى ننتظره ونَعُدُّ له بالنسبة لصحيفة الجزيرة ، كيوم الأحد الذى ننتظره ونَعُدُّ لَهُ بالنسبة لصحيفة الرياض ، ولا عجب ؛ فالثلاثاء والأحد أو الأحد والثلاثاء هما اليومان اللذان يصدر فيهما الملحق الأدبى الخاص بالصحيفتين المذكورتين .

المهم . نحن الآن مع الملحق الأدبى لصحيفة الجزيرة ، ومع المقال الرئيسى به ، وقد جاء عنوانه بالبنط العريض على ثلاثة أسطر فى مجالين متجاورين هكذا .

إنهم لست ضد التجديد فى الشعر ..
باسم الشعر .. ! لكن ....
يجنون على الشعر .. ضد أن يسمى الكلام المريض .. شعرًا .. !

والمقال بقلم عدنان الداعوق الذى استهله بعظمة زائدة هكذا :

« لم أقصر منذ زمن بعيد عن مواجهة الشعر الذى ركب موجة التجديد وراح يفوح فوق سطح الحياة الأدبية الراكدة ..

ففعل هذا الركود مستنقعات نمت فوقها أشكال جديدة من الطحالب لم تنم حتى فى أدغال المناطق الاستوائية الحارة ، ولا فى المستنقعات التى لم تصل إليها أية بعثة طبية أو استصلاحية .

كتبت فى هذا المجال منتقدًا ، وكانت النتائج عكسية ، فحصل أن نال أصحاب تلك الأشعار (الطحلبية) صكوكًا واعترافات سواء من المجتمعات الأدبية أو دور النشر أنهم شعراء طليعيون » ..

وواضح أن المقال يقتحم حصن الشعر الحر ليهدمه على أصحابه ، هو عنف نقدى إذًا ، وكان ممكنًا أن يعالج الناقد موضوعه بسياسة وكياسة ، أو على الأقل بموضوعية نقدية تكن لشعراء الشعر الحر كل حب وود ، أما هذا الكلام ، فيدل من أول سطر فيه على الاحتقار والضغن والحقد ، وقد جاء — كما تصورته — جرَّ شكل ، ومدخلاً إلى العنف النقدى . أجل . فقد فتح الأستاذ عدنان على نفسه فتحة لن يستطيع سدها لا لشىء إلا لأن الكلمة إن هى خرجت فلن تعود .

وليس حدسًا محضًا ما أقول ؛ فها نحن أولاء مع العدد الأسبوعى التالى من الملحق الأدبى لصحيفة الجزيرة والصادر يوم الثلاثاء

٤ ربيع الأول ١٤٠٠هـ ومع العنف النقدى الذى جاء ردًّ فعل للعنف النقدى السابق ، وقد جعلتهما موقفًا نقديًا واحدًا ؛ لأنهما فعل ورد فعل سباشر بلا فاصل زمنى يذكر ، فما أظن أن الـ (ناقد) قد صبر على الداعوق أكثر من بضع دقائق لملم فيها نفسه وورقه وقلمه وحماسته وحدته وغضبه وعنفه وحنقه وثورته العارمة الموجهة إلى الأستاذ عدنان .

والموضوع طبعًا هو الشعر الحر دفاعًا هذه المرة ، بل هجومًا مضادًا بأعتى وأقسى وأقصى ما كان الهجوم المضاد .

وقضية الشعر الجديد بعامة ، وليس الشعر الحر بخاصة قضية قديمة جديدة عاشت مدرسة الديوان فى مصر بها وعليها ، وكانت فى أول أمرها تأخذ نفس موقف (ناقد) من عدنان ، ثم آلت زعامتها بعد موت المازنى وشكرى إلى العقاد مقرر لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

وبفعل الزمن والحكمة والثقافة والسن والعمق والتبحر والهدوء الفكرى وتوقف العواصف والأنواء والحب والعداء ، أقول : بفعل ذلك كله وبغيره ، كان العقاد قد تحول من الضد إلى الضد . أجل . أجل . من الضد إلى الضد ، فأخذ موقف عدنان الداعوق من شعراء الشعر الحر . حتى إنه حرَّم عليهم التقدم بدواوينهم للحصول على جوائز الدولة فى الشعر ذاهبًا إلى أن بضاعتهم ليست بشعر ، وقد اضطرهم ذلك إلى عمل مسيرة كبيرة إلى القصر الملكى رفعوا فى نهايتها شكوى خطيرة ضد العقاد مقرر لجنة الشعر .

كان ذلك فى أواخر الأربعينات بله فى الخمسينات ، فالقضية قديمة جديدة كما قلت . وأنا فى أحد مؤلفاتى وصفت الشعر الحر بأنه الشعر الخنثى قاصدًا بذلك أنه لا شعر ولا نثر ، لأنه إن كان شعرًا متجهًا إلى تحت يسمى (الشعر النثرى) أو (قصيدة النثر) وإن كان نثرًا متجهًا إلى فوق يسمى (النثر الشعرى) أو (مقالة الشعر) ورحم الله المأسوف على طموحه أمين الريحانى الذى كان كاتبًا مهجريًا ، ولما رأى الناس من حوله يقولون الشعر بمواهبهم ولم تكن له موهبة شعرية مثلهم قلدهم ، فكتب أو فنظم مقالة أو قصيدة :

[كلمتنى الأرض].

أو [هى الأرض كلمتنى]، [كلمتنى أرض أجدادى].

وكان ذلك فجر الشعر الحر ، لاح ذات صباح .

أما مؤذنه (أمين الريحانى) فقد صاح وصاح حتى تناقلت صياحه الرياح وألقت به إلينا هنا فى عالمنا العربى مشرقه ومغربه ، بل حتى تحول الصياح إلى نباح ينبح كل من يقول : لا . للشعر الحر .

حنانيك يا «ناقد» فأنا لا أدلى بدلوى فى الموضوع المطروح على الأرض ، وإنما اقول ما كان ، والسبب فى أننى قلت ما قلت يتضح من الوقت الذى قلت فيه ما قلت . ففى ليلة باردة من ليالى قسنطينة أردنا (د. أنس داود وأنا أن نستدفىء بنار المناقشة الدائرة حول الشعر الحر) .

والدكتور أنس – للعلم – من أصحاب الشعرين ، ولما كان إلى التجديد أميل منه إلى التقليد وكنت أريد أن أكون موضوعيًا ويريد،

فقد سهرنا على بعض قصائد محمود درويش الذى كان فى زيارة شعرية غير ناجحة لقسنطينة ، وكانت من بينها قصيدة لا أذكر اسمها لكنها كانت منشورة على صفحة كاملة من صحيفة الأهرام .

وعلى كثرة ما قرأتها أنا للدكتور أنس وقرأها الدكتور أنس لى كاملة ومجزأة ملقاة ومغناة لم نفهم منها شيئًا مفردًا أو مركبًا ، عواطف أو أفكارًا ، مدحًا أو قدحًا ، ولاءً أو عداءً، اعتزازًا أو اهتزازًا ، رمزًا أو مرموزًا إليه .

ولما لم نستفد شيئًا حتى الموسيقى كتبت ما كتبت يا ناقد » ولست أخافك . وأراك تنذر (هدى عبد المحسن) بجولة الأسبوع القادم طالبًا منها أن تستعد لتلقى (الصفحة) .

هكذا جاءت وهى أحسن مما قصدت أنت .

ماذا ؟ !!

أليس هذا إرهابًا فكريًا ؟ !! !

دع الناس يقولون ما يشاءون يا ناقد » وقل – مثلهم – ما شئت لكن دون غضب ففى الغضب عطب . عشت وسلمت .

وتعال الآن لأناقشك موضوعيًا وآخذك بما كتبت .

تبدأ فتقول : هى ملاحظات سأحاول طرحها بكل ما أوتيت من حماس (حماس . لا بأس)/ وهذا الطرح الحاد (الحاد . لا ؛ ففيه تجاوز) هو جزء من دور الناقد الغيور الذى لا يستطيع السكوت أو التخاذل ، والذى يزاوج بين المنهج والغضب (الغضب

لا لا لا ونعوذ بالله منه فهو ريح تطفىء نور العقل) عندما ينفعل (ولماذا الانفعال وأنت تنقد أى تحكم) .

لا لا يا ناقد .

من قال إن الطرح يكون حادًا ؟ !! ! ومن قال : إنه بما فيه من حدة دور من أدوار الناقد الغيور أو غير الغيور ؟ !! ومن سمح لك بأن تمزج منهجك بغضبك ؟ !! !

إنك بغضبك قد فضضت الناس من حولك ؛ إذ من يعتمد منهجا غاضبًا موصلًا جيدًا أو حتى رديئًا للحقائق الفنية والأدبية ؟ !!

* * *

هذا كان العنف النقدى .

لكن لماذا ؟ !! وإلى أين ؟ !!.

أما لماذا ؟.

فللحماس وللحدة وللغضب ، وهى أمور صدَّر بها ناقد » مقاله .

وقد تكون هناك أسباب مستورة أو خفية أو مسائل شخصية معلقة بين الناقد والمنقود أو جبت ذمه واقتضت التعريض به إلى أن يأتى من يضع النقاط على الحروف .

وهناك عوامل مقررة ومعترف بها فى كثير من الدول المتحضرة منها المعاصرة ، فالمعاصرة حجاب كما يقولون ، ولعله لهذا لا يُؤرخ للأحياء ، ولا تكتب بعض الدول تاريخها إلا بعد مائة سنة ، وقد خففت ذلك أخيرًا إلى خمسين سنة .

فالمعاصر لى قد ينافسنى وقد أنافسه ، ولربما سلبنى رزقى أو سلبته رزقه فأحقد عليه أو يحقد علىّ ومن يدرى؟ فقد تكون شهادتى له طمعًا فيه وانتظارًا للخيرعلى يديه ، وقد تكون شهادته لى خوفًا منى واتقاء لشرى .

والمتخصصون فى المجال الواحد متنافسون تلقائيًا نظريًا وعمليًا .

هذه هى المعاصرة .

ومثلها المواطنة .

وقد وسّعت الطباعة ووسائل الإعلام المختلفة ثم المواصلات المتطورة، هذه التكنولوجيا المتقدمة جعلت العالم كله رقعة واحدة ولا أقول ضيقة .

فما بالنا بالعالمين : العربى والإسلامى ؟ !! !

إن مفهوم المواطنة قد اتسع حتى صار المواطن السورى – مثلًا – يخشى المنافسة على مستوى الدولة السورية وعلى مستوى دول الجامعة العربية .

والمواطن الكويتى . اتسعت دائرة مواطنته حتى صارت تشمل دول الخليج بخاصة والدول العربية بعامة .

وحين تعلن أمريكا أو الأمم المتحدة عن حاجتها إلى رجل مسلم فإن المنافسة المرادفة للمواطنة تشمل ملايين المسلمين .

وها هو ذا الـ « ناقد » السعودى يدخل فى وطيس العنف النقدى مع الناقد السورى ولا غرابة فى ذلك فكلاهما عربى مسلم إنسان .

* * *

وأما إلى أين ؟ !! !

فوالله لست أدرى ، ولو أننى أدرى أن مثل هذا النقد العنيف يخيف ، إى وربى ؛ فليس كل إنسان مستعدًا لتمزيق ملابسه وتخميش وجهه والأخذ بخناقه لمجرد أنه قال رأيًا ارتآه واقتنع به .

وإن شاء الله حين يسكت عن « ناقد » الغضب الذى نوه به فى صدر مقاله سيدرك أنه ظلم عدنان ظلمًا بينا .

فالرجل قال رأيًا فى الشعر الحر هو حر فى إبدائه طبعًا وقطعًا . هذه واحدة . ثم إنه ليس ضد حركة التجديد كما قال ويجب أن نصدقه .

وهو مؤمن بأثر البيئة فى الأدب والأديب ، وقد سكت تمامًا عن أثر الأدب والأديب فيها ، فلماذا نلصق به أنه ينكر هذا التأثير ؟ وماذا لو أنكره ؟.

إن هذه المناقشة مصادرة ، وجزء من كلام الذئب للحمل .

وهو قد اعترف بألمعية وريادة عدد من أعلام الشعر الحر ، وليس مطلوبًا منه التسليم بالكل أو السجود للكل ، فحتى الشعر العمودى لا يسجد فيه للكل ، وكم كان « ناقد » منصفًا وهو يقول : « ألا ترى يا صديقى أن الانتكاسة عامة وأنها تسرى على الشكلين » ؟ !! جميل جدًا هذا الكلام نظريًا فلماذا لم تطبقه يا « ناقد » عمليًا ؟ !.

أما عبارات [مكانك سر] و [للخلف در] وما أشبه ذلك فهى عبارات غير واردة فيما نحن فيه وبصدده تمامًا مثل [لعلك ترعوى] و [الكتابة بالأسلوب المدرسى] و [بلغة فتك بها الكسم] و [يراوح مكانه] و [وجه الخطورة فى هذا الصوت المرتد إلى أربعة عقود].

أى والله ما وجه الخطورة فى أن يكتب رجل مسن ؟ !! .

لقد عمرَّ أبوالعلاء وبرناردشو وأرنولد توينبى وأرنست همنجواى وبراتراندراسل وبيكاسو وطه حسين والعقاد وميخائيل نعيمة وغيرهم وغيرهم وكان عمرهم الطويل خيرًا وبركة لهم وللإنسانية معهم ، ولم يحلهم أحد على التقاعد لأن لهم امتدادًا زمنيًا يرجع إلى أربعة عقود وأكثر .

والمعمر الأكبر نوح عليه السلام . ماذا بالنسبة إليه أيضًا ؟ !!.

أخى « ناقد » لقد كنت متناقضًا أو شبه متناقض فى قولك قرب نهاية مقالك :

[إلى هنا نتوقف على أمل ألا نلتقى ثانية]مع آخر عبارة فى هذا المقال وهى – واسمح لى باقتباسها منك وردها عليك – .

[واسلم لأخيك]

عبده قلقيله